# اكتشاف الصين
# رحلة أكاديمي مغربي إلى أرض التنين
## الصين المعاصرة من منظور مغربي

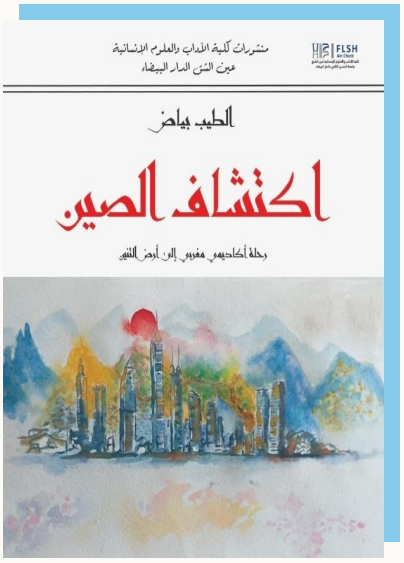

**محمد النظام**

باحث في التاريخ المعاصر والراهن
جامعة الحسن الثاني – الدار البيضاء
المملكة المغربية



**بيانات الكتاب**

المؤلف: الطيب بياض
الناشر: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عين الشق
الناشر: بالتعاون مع مؤسسة "باب الحكمة" بتطوان

عدد الصفحات: ١٨٤ صفحة من القطع المتوسط.
الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٢٢
مكان النشر: المغرب.

**كلمات مفتاحية:**

الصين؛ الرحلة؛ بياض؛ التمثل؛ المغرب؛ الآخر؛ الأنا؛ عرض كتاب

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** 10.21608/kan.2024.329660.1175


### مقدمة

تتميز علاقة الطيب بياض بالرحلة بالثراء كمًا ونوعًا، إذ درَّس لمدة فاقت العشر سنوات مجموعة من المتون الرحلية ضمن وحدة ثقافات البحر الأبيض المتوسط، المقدمة لطلبة الإجازة والماستر بكلية الآداب عين الشق، كما دأب على نشر دراسات مقتضبة على أعمدة مجلة زمان تتعلق بالرحلات السفارية المغربية التي اتجهت صوب بلدان أوروبية. وفي سنة ٢٠١٦، صدر له عن منشورات جامعة الحسن الثاني مُؤلف يحمل عنوان **"رحالة مغاربة في أوروبا بين القرنين السابع عشر والعشرين تمثلات ومواقف"**، قام فيه بدراسة أحد عشر نصًا رحليًا بدءًا من رحلة ناصر الدين على القوم الكافرين لأحمد أبي القاسم الحجري سنة ١٦١١م، مرورا برحلة الصفار التطواني سنة ١٨٤٥م، وانتهاء بأسبوع في باريس لمحمد بن عبد السلام السايح سنة ١٩٢٢. ولشغفه بالرحلة، فإنه لم يترك تجربة سفره إلى الصين سنة ٢٠١٨ تمر دون أن يتقاسمها مع القراء في شكل نص رحلي فريد، ويغري بالقراءة.

ولا يمكن فصل الغزارة في التأليف الرحلي لدى الطيب بياض عن وفرة تآليفه وتنوعها، فقد أصدر سنة ٢٠١١ عن منشورات أفريقيا الشرق كتاب **المخزن والضريبة والاستعمار**، وفي سنة ٢٠١٩ صدر له عن منشورات دار أبي رقراق كتاب **الصحافة والتاريخ**، وفي سنة ٢٠٢٠ صدر له عمل توثيقي ضخم عبارة عن حوار أجراه مع امبارك بودرقة حول أحداث ٣ مارس ١٩٧٣. إضافة إلى هذه الأعمال نشر الطيب بياض العديد من المقالات العلمية تمحورت حول التاريخ الاقتصادي وتاريخ الذهنيات.

إن الصورة التي رسمها الطيب بياض عن الصين والصينيين لم تأت عفوا، ولا تخلو من سبق تقدير، بل جاءت نتيجة وعي ومعرفة سابقين بهذا البلد. فقد سبق له أن ساهم بمداخلتين علميتين حول موضوع العلاقات المغربية الصينية؛ الأولى تحت عنوان: **"المغرب والصين أفق الشراكة المنتجة"** والثانية حملت عنوان: **"المغرب ورهان الجسر الذهبي بين إفريقيا والصين"**. والحالة هذه، فإننا أمام ما يمكن تسميته بالرَّحالة المثقف الذي كان يسجل مشاهداته وفق مرجعية متكاملة من المفاهيم العلمية والقيم الجمالية والمعرفية والثقافية، وهو بذلك يشكل امتدادًا لعدد من الرحالة المغاربة الذي اشتهروا خلال القرن الماضي بمزاوجتهم بين التأليف العلمي والكتابة الرحلية، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: محمد بن الحسن الحجوي، ومحمد بن عبد السلام السايح، وأحمد الهواري، وعبد الهادي التازي، وعبد الهادي بوطالب، والمهدي بنونة، وعبد الله الجراري.

## أولاً: الأنا في ضيافة الآخر لقاء مع الجديد

الآخر هو كل ما ترى الذات أنه مخالف لها أو مختلف عنها في نُظُم الحياة كلها، في العادات والتقاليد والأذواق واللغة والدين، والصورة التي ترسمها الذات عن هذا الآخر غالبا ما تكون مزيجا غير متجانس من العواطف والأحكام[١]. وتلعب الثقافة التي تنتمي إليها الذات دورا مهما في تَعْيِينِ مغزى ودلالة الآخر. وانطلاقا من هذا المعنى، يمكن القول إن الرحلة هي إنباءٌ عن ذهنية الرَّحالة، وتصويرٌ لمكونات الوعي الثقافي عنده أكثر مما هي حديث عن البلد موضوع المشاهدة[٢].

حمل الطيب بياض صورة ما عن الصين قبل أن يرحل إليها، هذه الصورة تشكلت لديه انطلاقًا من قراءاته للكتابات التي تناولت هذا البلد قديمًا وحديثًا، وانطلاقًا أيضًا من نقاشاته مع زملائه "حملت الشرق معي إلى الغرب في اللاوعي، فكان يقفز من عقلي الباطن كلما شرد الذهن أو بُحث بأمره إلى جليس، ولكنه جثم بثقله في رحلة العودة إلى الرباط، ولازم تفكيري منذ وطأت قدماي مطار أورلي بباريس منتظرًا إقلاع الطائرة، وكأني بخيالي يستجمع صورًا ومشاهد من الغرب سيجري استحضارها من باب المقارنة بشكل لا إرادي في رحلة الشرق"[٣].

وهكذا، إذا أخذنا بعين الاعتبار الأرضية الثقافية التي ينتمي إليها الطيب بياض، أمكننا أن نفهم كيف أن الأشياء الجديدة التي لم يسبق له رؤية مثلها قد أثارت إعجابه ودهشته، وشكلت له مرآة يقرأ فيها ذاته وما يعتريها من أعطاب تشكلت في الزمن الطويل، وساهمت في عرقلة معظم التجارب الإصلاحية. وجد بياض نفسه منذ وصوله إلى الصين أمام مشاهد وأشياء مثيرة كانت جميعها غير معهودة لديه، وقد شكلت مدينة شينزين بالنسبة لرحالتنا تلك المدينة النموذجية، التي تُجسِّد بشكل ملموس ما يمكن للعقل البشري تحقيقه حينما يُفسح أمامه المجال لممارسة قدراته الإبداعية. فقد تحولت هذه المدينة في غضون أربعين سنة من قرية للصيادين إلى مدينة ساحرة بفضل سياسة الإصلاح والانفتاح التي قادها الرئيس الصيني السابق دينغ شياو بينغ، هذه السياسة جمعت بين التخطيط الاقتصادي والإرادة السياسية مع المحافظة على الهوية الثقافية الصينية، دون إغفال البعد الإيكولوجي[٤].

تحتوي هذه المدينة التي سماها بياض بالنموذج الخارق للعادة تارة، ومدينة الأزهار تارة أخرى، على ١٠٠٠ ناطحة سحاب يفوق عدد طوابقها مائة طابق، وعلى ١٩٠٠ مختبر للبحث، وعلى ١٠٠٠ حديقة تشكل ما نسبته ٤٥% من إجمالي مساحة المدينة[٥]، الشيء الذي يجعلها بحق مثالاً للمدينة الإيكولوجية الصديقة للبيئة. ونظرا لاهتمام سكان هذه الحاضرة بالفضاءات الخضراء فقد عمد بعضهم إلى استنبات الورود والأزهار على أسطح العمارات وشرفات المنازل[٦]. وارتباطا بهذا البعد البيئي دائما، انتبه رحالتنا إلى أن التنقل في مدينة شينزين يكون باستعمال وسائل صديقة للبيئة وتعمل بالطاقة النظيفة، وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على أن تحقيق طفرة اقتصادية برقم معاملات كبير جدا يمكنه أن يتعايش في

تناغم تام مع بيئةٍ خالية من التلوث، ووسط فضاء موسوم بالرونق والجمالية[٧].

إن ما حققته مدينة شينزين لم يأت حسب الطيب بياض بمحض الصدفة، بل جاء نتيجة تخطيط عميق وعمل دؤوب، انخرطت فيه كل مكونات المجتمع التي سَخَّرَتْ نفسها بكل تفان لخدمة الإنتاج. وفي هذا الصدد، أُعجب رحالتنا بانضباط سكان المدينة، وخصوصًا فئة الشباب الذين نظموا أنفسهم في جمعيات مدنية فاق عددها أحد عشر ألف منظمة تطوعية، تضم مليون وثلاثمائة متطوع يقدمون خدمات مجانية للسكان والزوار في مجالات التعليم والنظافة والصحة والمساعدات الإنسانية، كما يقدمون مقترحات تشريعية للحكومة قصد تطوير الخدمات الاجتماعية وتوطيد الضمان الاجتماعي للفئات الناشئة[٨].

إن رحلة اكتشاف الصين موضوع دراستنا هذه، تشبه إلى حد كبير مرآة ذات وجهين أحدهما يعكس ما هو جديد ومستجد، والآخر يحتفظ بصورة للأشياء القديمة والمعروفة التي حملتها الذات في ذهنها. والحالة هذه، فإن الطيب بياض وجد نفسه وهو يشاهد ويستمتع بتجربة هؤلاء الشباب المتطوع بشينزين يقارن بين هذا السلوك الجاري به العمل في الوطن المُرتحل إليه، وسلوك شبيه به لم يعدّ موجوداً في الوطن الأصلي، والحديث هنا بطبيعة الحال عن مجموعة من التجارب والأوراش التي كانت مؤطرة بنظام العمل الجماعي التطوعي، بدءا من التويزة مرورًا بتجربة الكشفية المغربية وبناء طريق الوحدة، والتلاحم الوطني في المسيرة الخضراء وقيم اليسار المغربي وتضحياته طيلة النصف الثاني من القرن العشرين[٩].

إن هذه الصورة المتناقضة التي وقف عليها رحالتنا، جعلته يسائل الذات عن سبب تفريطها في قيمها النبيلة التي استقرت في الذهنية الجماعية للمغاربة في الزمن الطويل. ماذا جرى وكيف تبخرت هذه المبادئ فاسحة المجال للنَّزعات الفردانية في مجتمع تربى أفراده على ثقافة الجماعة والقبيلة مع ما تقتضيه من تآزر وتكافل وتضحية؟ كيف تراجع الرمزي أمام سطوة المادي، وتقدمت المصالح الشخصية على المصالح العامة؟ كيف فقدت الأشياء معانيها وضاعت البوصلة؟[١٠]

لم تتطلب الإجابة عن هذه التساؤلات من رحالتنا كثيراً من الوقت، فهو المؤرخ النبيه الذي خبر مكامن العطب القديم عبر تحليله للبنيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في زمنها الطويل، ويكفي الرجوع إلى مقالين صغيرين، ولكنهما كثيفين يحمل الأول عنوان أي تعليم نريد[١١]، والثاني يحمل عنوان الاحتباس الثقافي[١٢]، لنفهم سبب تركيز الطيب بياض في الرحلة على المدخل الثقافي، وخصوصا التعليم في أي اصلاح منشود. فالمدرسة هي الفضاء الوحيد القادر على تكوين جيل من الشباب المُواطن المتشبث بهويته وقيمه ومبادئه، والمنفتح في الوقت نفسه على الثقافة العالمية.

لقد كانت رحلة الطيب بياض إلى الصين مليئة باللقاء مع الجديد ومع الأشياء المتميزة بغرابتها أو بطابعها المثير، فكانت تلاحقه مرحبة به في كل وقت وحين. فعندما أتيحت له فرصة زيارة برج tencent المتخصص في التكنولوجيا الحديثة، وجد رحالتنا نفسه داخل فضاء أشبه ما يكون بمدينة للجن الملائكة، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الاختراعات التقنية المدهشة[١٣]. ورغم أن هذه المشاهد بحكم جِدَّتها تُورث عادة في النفس البشرية الانبهار والإعجاب، فإن الطيب بياض لم يرتبك، بل كان حريصا على تدوين ملاحظاته بشكل فوري، فهو ولج لهذا المجمع التكنولوجي العملاق بعين المُدَرِّس والباحث، الذي يُفضل التوصل إلى معرفة الأشياء عبر التجربة المباشرة والمعيشة بدلا من المعرفة المكتسبة من الكتب، ومن تمة جاءت رحلته مليئة وغنية بالانطباعات الحية التي خالجته في حينها، وعبَّر عنها بكامل الصدق والوفاء، دونما الحاجة إلى عنصر وسيط، وقد كانت إشارة بياض إلى هذا المبدأ بصريح العبارة عندما قال: "أتاحت لنا هذه الزيارة القيام بتجارب لمخترعات ستكون متداولة في سوق الاستعمال التقني بعد حوالي ربع قرن"[١٤].

إن تركيز بياض على تدوين التفاصيل الدقيقة يعود حسب اعتقادنا إلى أمرين أساسين: أولاً، رغبته في إقناع القارئ بحضوره الفعلي بين تلك الأشياء الموصوفة رغم إقراره بعدم الاستيعاب الكلي لوظيفتها، "حاولنا السؤال عن استعمالات أكثر من آلة، ورغم الشروح المبسطة التي قُدِّمت لنا فقد فهمنا النزر القليل، وغاب عنا الشيء الوفير"[١٥]. وثانيًا، تأكيدٌ للمتلقي المحتمل بأن ما شاهده

يتعلق بلقاء حقيقي مع الجديد. ولأن التدقيق في التفاصيل يعتبر شيئا ذا قيمة في حد ذاته، وفيه يمكن للإنسان إدراك الكثير من الحقائق، فإن رحالتنا عمل جاهدًا كلما أتيحت له الفرصة على تقديم شروحات مستفيضة حول المخترعات التقنية المستجدة، والتجارب العلمية المليئة بالألغاز، كما عزز نصه بالأرقام والاحصاءات والوثائق والصور التي توثق لمراحل سفره وكأنه يستشهد بالوثيقة في عملية التدوين التي استندت بشكل كبير على الذاكرة[١٦]، وهو تمرين غير مألوف في النصوص الرحلية، وفي هذا مزيد من الرفع لمقدار مصداقيته وأمانته لدى القارئ.

هناك عدة أمثلة في الرحلة يمكننا أن نتتبع عبرها الطيب بياض وهو يخوض مغامرة المواجهة مع الجديد، مع ما يُرافق ذلك من حضور لعنصري الإبهار والاندهاش. ففي المعرض الدولي لصناعة البيانات الضخمة المُقام بمدينة قوييانغ، كانت الدهشة تعلو وجوه الوفد الافريقي أمام كل رواق يصلون إليه، فكل اختراع يَجُبُّ ما قبله ويجعل المتأمل فيه ينبهر بأمور لو شاهدها السلف لحسبها من الكرامات والخوارق[١٧]. أتيحت للطيب بياض أثناء وجوده بأروقة هذا المعرض اكتشاف عدة آلات تستعمل في عدة وظائف مثل الطائرة بدون طيار، والروبوتات المختلفة الأحجام والاستخدامات، والأجهزة المخصصة لكشف الأوضاع الصحية، وحتى تلك المستخدمة في التدليك والترويض الطبي[١٨]. غير أن ما جذب الطيب بياض أكثر هو قاعة خاصة تتضمن شاشة كبيرة تُعرض فيها البيانات الضخمة المتعلقة بتحركات الأشخاص في الفضاءات العمومية، حيث تقوم هذه الشاشة انطلاقا من تجميعها للمعطيات، بتحديد هويات الأفراد من خلال أرقام بطائقهم التعريفية، أو البنكية أو أرقام هواتفهم، أو حتى لوحات سياراتهم أو غيرها مما هو مسجل في شكل وثائق باسمهم لدى أي مصلحة من مصالح الدولة[١٩].

ورغم أن عملية تجميع المعطيات وتوظيفها أيًا كان الغرض من ذلك قد يضع مسألة الخصوصية الفردية على المحك، فإن الطيب بياض رأى في الأمر استثمارًا ذكيًا للبحث العلمي، إذ أن تجميع المعطيات والبيانات سيسمح للمسؤولين بتملك معلومات دقيقة يمكن الارتكاز عليها لتحقيق التنمية المنشودة التي تراعي الفروقات الموجودة بين الأشخاص والجهات[٢٠].

وإذا كان بياض قد وقف وهو يتجول في الجنوب الغربي للصين على نموذج واقعي لمدن وبلدات حققت إقلاعًا اقتصاديًا في زمن قياسي، فإن انتقاله إلى مدينة بيكين قد جعله يعيش تجربة أخرى فريدة، وبأبعاد جديدة تتجاوز هذه المرة ما هو مادي إلى ما هو رمزي. لقد أضفى رحالتنا على العاصمة الصينية عدة صفات مثالية من قبيل النظافة والنظام واحترام الطبيعة واستحضار الذاكرة الجماعية، كما وصف سكانها بالرجال الجادين المجدين في عملهم، لا يبغون غير خدمة مصالح دولتهم المُحْكمة التنظيم، وهو بذلك يسمو بهذه الحاضرة الشرقية إلى درجة ما هو مقدس أو روحاني.

بدت مدينة بيكين للطيب بياض امتدادا للمدن الصينية الأخرى التي زارها في كثير من الجوانب، من قبيل شساعة الشوارع وعدم الازدحام وانسيابية المرور وقلة حوادث السير وارتفاع المباني والسرعة في الإنتاج الصناعي مع الحفاظ على البيئة[٢١]، لكنه في العاصمة وقف على معطى آخر ساهم في منحه عنصرا إضافيا لتفسير النهضة الصينية، هذا المعطى هو حضارة الصين وتاريخها الذي تجسد له في المتاحف وفضاءات الذاكرة، وقبل هذا في سورها العظيم، فبالمتحف الوطني لاحظ رحالتنا بشكل ملموس كيف يحفظ الصينيون تاريخهم ويصونون ذاكرتهم من الاتلاف. فبهذه المعلمة العمرانية الفريدة التي تتوسط ساحة تيان آن مين وضريح الزعيم ماو تسي تونغ، يمكن للزائر مشاهدة المنحوتات المُعبرة عن تراث زاخر وعريق، إضافة إلى الأدوات التي استعملها الإنسان الصيني من الفترة البدائية إلى عصر الفضاء، والأسلحة المتباينة الأشكال والأنواع ووسائل النقل المختلفة، والأدوات الفلاحية والحرفية، إلى جانب ذلك يضم المتحف وثائق نادرة وصور ولوحات ومقتطفات من جرائد تُؤرخ لمحطات مختلفة من العمل الثوري محليًا وكونيا[٢٢]. وكم كانت دهشة الطيب بياض كبيرة عندما عرف أن الدخول إلى المتحف مجاني، رغم أن فرض رسوم على الدخول بإمكانه أن يوفر مداخيل مهمة لوزارة الثقافة، لكن الجانب الصيني ينظر للأمر من زاوية أخرى، حيث الرهان لدى المسؤولين هو ربط المواطن الصيني بتاريخه وذاكرته الجماعية، وهذا المطلب لا يقدر بثمن[٢٣].

إننا بحق أمام نص رحلي غير مألوف، لم يكتف صاحبه بنقل مشاهداته وتدوين انطباعاته بشكل جامد كما كان معهودًا في عدة رحلات سابقة، بل كان مسكونا بهاجس السؤال وهو الذي ارتحل من وطن فشل في معظم مشاريعه الاصلاحية التي راهن عليها، لذلك فإن رحالتنا كان منشغلاً طوال فترة تواجده بالصين عن البحث في السياقات التاريخية الشارحة للنهضة الصينية السريعة، والآليات المعتمدة لجعل المقاربة تشاركية منتجة، والنهج التعاوني مثمرًا وعادلاً، رغبة منه في استلهام النموذج دون استنساخه حرفيا. لذلك فإننا نعتبر هذا النص الرحلي هو أقرب إلى التقرير الاستطلاعي الذي يقدم خارطة طريق واضحة المعالم للمسؤولين في وطننا، خصوصًا وأننا نعيش مرحلة تنزيل النموذج التنموي الجديد الذي يرعاه عاهل البلاد.

استطاعت الصين أن تصل إلى ما وصلت إليه استنادًا إلى مجموعة من الركائز يمتزج فيها الاقتصادي بالتاريخي، والاجتماعي بالهوياتي والثقافي بالأنثروبولوجي، وإذا أردنا أن نلخص أهم ما استنتجه الطيب من خلال نقاشاته مع المسؤولين الصينيين بخصوص التحولات النوعية التي لحقت ببلدهم في زمن قياسي، فيمكننا القول إن ذلك حصل عبر:

- التدبير الجيد للوقت وتبسيط الاجراءات الإدارية، واستخدام التكنولوجيا الحديثة في الحياة اليومية.
- التمسك بالقيم النبيلة للمجتمع الصيني والمحافظة عليها وتثمينها[٢٤].
- الاهتمام بالشباب وتأطيره علميا وإيديولوجيا ليكون قادرًا على الاضطلاع بالمسؤولية، ومستعدا للدفاع عن المصلحة العليا للدولة[٢٥].
- الاعتماد على نظام اشتراكي، لكن مع ادخال تعديلات عليه تجعله يستجيب لمتطلبات العصر، حيث أُطلق على النظام الجديد لقب الاشتراكية ذات الخصائص الصينية[٢٦].
- تطوير التعليم مع التركيز على تدريس الشُعب العلمية والذكاء الاصطناعي.
- الحضور القوي للدولة ليس في المدن وحسب، بل في المناطق النائية، وذلك عبر تكوين السكان سياسيًا وإيديولوجيًا، ومساعدتهم على تحسين أوضاعهم المعيشية[٢٧].
- تطبيق مبدأ رابح رابح في الداخل قبل تصريفه في الخارج، الشيء الذي يمنح المواطن الصيني شعورا بكونه مساهما في الإنتاج وفي التنمية.

لم يكن بإمكان الطيب بياض استخلاص هذه الركائز، وبالتالي فهم طبيعة اشتغال الذهنية الصينية، لولا تسلحه بعُدَّةٍ منهجية رصينة، وشبكة من المفاهيم التحليلية التي كان يوظفها بين الفينة والأخرى، والتي استقاها من مدرسة الحوليات، فهو الباحث والمدافع العنيد عن النَفَسْ التجديدي في الكتابة التاريخية الذي قاده رواد هذه المدرسة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ففهم الظاهرة الصينية يستوجب حسبه توظيف كل العلوم الاجتماعية بدءًا من التاريخ والجغرافيا مرورا بالفلسفة والأنثروبولوجيا وانتهاء بالاقتصاد، وكل محاولة لفهم سر تفوق الصين دون الاعتماد على هذه العلوم سيقود حتما إلى نتائج مجانبة للصواب، وهذا ما حدث لجزء من الأوروبيين الذين اكتفوا بالأحكام الجاهزة والنمطية، وبالتالي ضيعوا على أنفسهم فرصة سبر أغوار العملاق الآسيوي.

اتخذ الطيب بياض عمومًا موقفًا إيجابيًا من الثقافة الصينية بكل تمظهراتها، سواء تلك التي تراءت له من خلال الفن أو الأخلاق أو الأكل أو المعارف أو المهارات... وكان مَرِناً إلى أقصى الحدود في الحكم عليها، ولم يصدر عنه أي موقف سلبي تجاه الآخر المخالف، بل إنه على العكس من ذلك استحسن قيم المجتمع الصيني وعاداته وطريقة تدبيره للشأن العام، وقد انتبه رحالتنا إلى هذا الأمر وهو مازال في المغرب، حيث نوه بالحرفية والمهنية العالية التي أبان عنها الموظفون بمعهد كونفوشيوس بالدار البيضاء أثناء تواصلهم معه بشأن الحصول على التأشيرة[٢٨]، وخصوصًا السيدة كاتي التي ظلت مواكبة لمسار الرحلة من المغرب إلى الصين. وارتباطا بموضوع المرأة، فقد أُعجب رحالتنا كثيرا بالسيدة ليي شوانغ Liu shuangالتي كانت مرافقة للوفد الإفريقي، فهي الإنسانة المثقفة واللطيفة، التي توزع الابتسامات بأناقة، وتُرحب وفق أبجديات الدبلوماسية، تجيد فن الاصغاء وتروم الاختصار، وتتجنب الحشو والاطناب، تتمتع

بكاريزما فريدة وتجمع بين الهيبة والانفتاح، خفيفة الظل لا يثير حضورها أي ضجر أو نفور، سيدة التوازنات تنصت حين يتحدث غيرها وتتكلم حين يتطلب الأمر ذلك[٢٩].

إن هذه الصورة التي تمثلها الطيب بياض عن المرأة الصينية، المتصفة بالرزانة والحكمة هي إشارة قوية على التغيرات التي لحقت الأنا في علاقتها بالآخر في الزمن الطويل، فلطالما تمثل الرحالة المغاربة المرأة الأوروبية ككائن قليل العفة، وممارس للرذيلة، وتحاملوا عليها وأعرضوا عن ممازجتها أو حتى محاورتها[٣٠].

تبدى التحول في ذهنية الأنا أيضًا من خلال عدم استفسار رحالتنا عن نوعية المأكولات التي كانت تُقدم له وللوفد الإفريقي المرافق، وقد أشار إلى هذا الأمر أثناء حديثه عن وجبة الفطور التي تناولها في مدينة شينزين "كنا نستمرئ منها (المأكولات) ما لذ وطاب دون معرفة أسمائها ولا مكوناتها ولا طريقة إعدادها"[٣١]. والقارئ للمتون الرحلية المغربي المنتمية للقرن التاسع عشر وما قبله، سيلاحظ بشكل واضح كيف كان كتاب الرحلات يحرصون على أن يبينوا للقارئ أنهم لم يتناولوا من الأطعمة وهم في أوروبا إلا ما يوافق الشريعة الإسلامية مما هم مباح وحلال. بل كان البعض منهم يُفصل في نوعية المواد الغذائية التي يحملها الوفد معه من المغرب، فالصفار مثلاً أشار إلى أن القائد أشعاش حمل معه إلى فرنسا مؤونة مكونة من "ثورين اثنين وأربعين كبشا وستة مائة دجاجة ومقادير من البيض والخضروات والتفاح والعنب"[٣٢].

ومن مظاهر التحول التي احتوت عليها رحلة اكتشاف الصين، عدم القدح في سلوكيات وعادات الآخر، والتي قد تبدو متعارضة مع القيم والمبادئ التي تؤطر ذهنية الأنا. وعلى العكس من ذلك قدم الطيب بياض صورة مغايرة عن المجتمع الصيني الذي يُوصف عادة بالمجتمع المنغلق على نفسه، والخاضع لرقابة الأجهزة الأمنية ولسلطة الحزب الشيوعي، "لاحظت تناغما حميميا بين الفتيات والفتيان في فضاءاتها العامة حيث تتشابك الأيدي في أجواء رومانسية داخل مدينة تبدو أكثر انفتاحا أيضًا بعلبها الليلية"[٣٣].

كان رحالتنا متفهما لكثير من الأمور التي بدت له غريبة شيئا ما مثل الإجراءات الأمنية التي خضع لها في مطار قوانغتشو، يقول الطيب بياض في هذا الإطار: "عند مدخله (المطار) تقابلك عدة آلات لتعبئة البيانات يكفي أن تضع جواز سفرك على شاشة الجهاز حتى يصطفي تلقائيا لغة التواصل، بعد الانتهاء من هذا التمرين غير المألوف لكلينا، تأتي مرحلة الوقوف أمام أحد أفراد شرطة المطار فيطلب منك وضع بصمات كلا اليدين، ولا يكتفي بذلك، بل يحثك على الوقوف بشكل محدد أمام كاميرا مثبتة بجانبه لأخذ صورة دقيقة تحدد قسمات الوجه"[٣٤]. إن هذه الإجراءات الدقيقة والغريبة في الوقت نفسه، اعتبرها رحالتنا إجراءً عاديا لتفادي الوقوع في المخاطر التي من شأنها تهديد الأمن الداخلي، أو ما عبر عنه بـ: "والمسألة عندهم ليست مسألة وجوه أو حبور، بل اتقاء للشرور، يستوجب لديهم عدم التراخي أو الفتور"[٣٥].

ومن الأمثلة الأخرى الدالة على أن رحالتنا كان متفهما للثقافة الصينية، هو عدم استغرابه من كون الصينيين لا يتقاسمون صبيب الأنترنيت فيما بينهم، ثم أنهم لا يستخدمون تطبيق الواتساب ويستعيضون عنه بتطبيق الويشات[٣٦]. لقد كان الطيب بياض بحكم ارتكازه على المدخل الأنثروبولوجي على وعي بأن الفروقات الثقافية هي أعقد وأصعب من كل بعد جغرافي، فالأشياء التي قد تكون صحيحة ومقبولة في ثقافة معينة، قد تكون غير صحيحة في ثقافة أخرى، ولعل هذا الأمر هو الذي منحه أفقا أوسع لفهم ذهنية الإنسان الصيني في مرحلة أولى، وتقبلها في مرحلة ثانية، والتأقلم معها في مرحلة ثالثة.

وفيما يشبه الحوار الثقافي الذي خاضته الذات مع ثقافة الآخر، والذي كان في بعض الأحيان مضمرا وفي حالات أخرى صريحًا، لم يتوان الطيب بياض عن التذكير بهويته الإسلامية، مع ما تستلزمه تلك الهوية من مراعاة للدين قواعدًا وسلوكًا. وبما أن الرحلة تمت في شهر رمضان فإن الطيب بياض كان يستخدم نفس المؤشرات الثقافية المُحدِّدة لعنصر الزمن في العالم الإسلامي، حيث إن إيقاع اليوم خلال شهر رمضان يتحكم فيه بشكل رئيس آذان الفجر وآذان المغرب، أو ما أسماه رحالتنا بالزمن الرمضاني[٣٧]، حيث كان مضطرًا إلى تغيير عاداته التي ألفها في المغرب خلال هذا الشهر، فالسبات العميق وقراءة الرواية ومشاهدة التلفاز، حل محلهما النوم القليل والمتقطع، وكثافة الأنشطة وكثرة الحركة[٣٨]. ويرجع هذا إلى أن الصينيين فَصَّلُوا برنامجاً على مقاسهم، ينسجم

وديناميّة عملهم ويعكس نمط حركيتهم وقدرتهم على العمل والإنتاج[٣٩]، فما كان على الوفد الافريقي سوى التأقلم مع هذا النمط من العيش. وارتباطا بالأجواء الرمضانية، فإن الطيب بياض أشاد بالاحترام الكبير الذي أبداه الصينيون لشعائر وطقوس الوفد الافريقي المسلم، حيث كانت وجبات الفطور والسحور تُقدم في وقتها المحدد وفي مطاعم محترمة، وتتكون في الغالب من أطباق متنوعة تمزج بين الفواكه والخضروات والسَّلطات واللحوم والأسماك والمرطبات المختلفة[٤٠].

إضافة إلى كرم الضيافة وحُسن الاستقبال، أقرَّ بياض للآخر بعدة خصال ايجابية تجسدت له في البشاشة التي جُبل عليها الصينيون، والتواضع والاحترام والروح التضامنية في العمل ونكران الذات وحسن الأخلاق، والحرص على عدم ازعاج الضيوف أو وضعهم في موقف محرج. وفي هذا الإطار انتبه رحالتنا إلى أن اللجنة المنظمة كانت حريصة على عدم حصول أي شيء نشاز يمكن أن يبصم هذه الزيارة ببصمة سلبية، ولو تعلق الأمر بتعكير مزاج أحدِ أفراد الوفد، فقد دأب المنظمون على جس نبض مستوى الرضا لدى ضيوفهم بطرق مختلفة، لكنها تتسم بكثير من اللطف[٤١]. وعلى العكس من ذلك انتقد بياض بشكل صريح عدم لباقة بعض أفراد البعثة الافريقية، الذين كانوا يطرحون الكثير من الأسئلة غير المناسبة على المترجم المرافق لهم، مما كان يتسبب له في اجهاد حقيقي معنوي وجسدي[٤٢].

إن اهتمام الطيب بياض كما يبدو من خلال صفحات الرحلة بالأنماط الثقافية للشعب الصيني، لم تكن مجرد انعكاس لحالة إعجاب فقط، بل كانت حسب اعتقادنا اختبارًا للنظريات التي تَشَرَّبها من بعض الدراسات الأنثروبولوجية، وبالتالي فإن الصين شكلت له ميدانًا عمليًا ملموسًا لتجريبها، والقارئ للرحلة بتمعن سيلاحظ كيف أن بياض كان أثناء رصده لبعض الظواهر في المجتمع الصيني، يُركز دائمًا على الجماعي بدل الفردي، والسيكولوجي بدل الفكري، والعفوي بدل التأملي، والشفهي بدل المكتوب، ويسعى إلى ربط ما هو ذهني وثقافي بما هو اجتماعي واقتصادي، للوصول في الأخير إلى فهم سليم وعميق للذهنية الصينية. وقد توفَّقَ في ذلك إلى أبعد الحدود، فالكثير من الخلاصات التي توصل إليها بياض جاءت متطابقة مع تلك التي كان يقدمها المسؤولون الصينيون أثناء حديثهم عن تجربة بلدهم في التنمية أمام الوفد الإفريقي[٤٣]. ولم تشكل اللغة مانعا أمام رحالتنا لسبر أغوار الثقافة الصينية وتمظهراتها، إذ كان يتواصل بشكل مباشر مع المسؤولين الصينيين باستخدام اللغة الإنجليزية، أو عبر آلية الترجمة. وفي بعض الأحيان اعتمد على تحليل لغة الإشارة، أو ايحاءات الجسد وتعابير الوجه لفهم مغزى الخطاب[٤٤]، وكأني به يحاكي تجربة رولان بارث الذي زار اليابان سنة ١٩٦٦ وهو يجهل لغتها، لكنه تصيد الإشارات، وتتبع العلامات وحلل الرموز والأيقونات، وانتهى إلى تدوين كتاب بعنوان يحمل أكثر من دلالة أسماه: امبراطورية العلامات L'empire des signes[٤٥].

## ثانيًا: الأنا والآخر مقارنات صريحة وانتقادات ضمنية

من خلال تجربتنا المتواضعة في ميدان الرحلة، وانطلاقا من احتكاكنا بعشرات النصوص الرحلية يمكننا القول إن الرحالة عندما يتحدث بإعجاب عن موضوع أو مشهد معين، ويسهب في وصفه بشكل مفصل وهو في ضيافة الآخر، فإنه يستحضر بوعي أو بدون وعي وضعا مشابها أو مغايرا تعيشه الذات في وطنها الأصلي. واستنادا إلى هذه الجزئية وإلى السياق الذي تمت فيه رحلة اكتشاف الصين فإن الطيب بياض وجد نفسه أحيانا يقارن بين ما هو موجود في الصين وما هو مفقود في المغرب، وأحيانا أخرى ينتقد بشكل صريح بعض السلوكيات الفردية والجماعية التي ساهمت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في عرقلة المشاريع الاصلاحية التي تباناها المغرب على الأقل منذ مطلع الألفية الثالثة. ويوضح الجدول التالي بعض أوجه المقارنة التي قام بها رحالتنا بين الأنا والآخر، والتي شملت عدة مواضيع تمس الثقافة، والاقتصاد، والشباب، والبيئة.

| ميادين المقارنة | الآخر | الأنا |
|---|---|---|
| ميدان الإدارة | نوه الطيب بياض بتبسيط الاجراءات الادارية واستخدام الوسائل الحديثة في التواصل مع المرتفقين، ومعالجة طلباتهم بسرعة وبحرفية ومهنية عالية. | استحضار غير مباشر لوضع مناقض في المغرب حيث تضيع مصالح المواطنين بسبب تعقيد الاجراءات الإدارية وبطئها. |
| الحياة داخل المدن | فَهُمْ (الصينيون)، ينظفون كل شيء حتى التماثيل والنُصُب التذكارية التي تزين الشوارع، والظاهر أن النظافة طقس مقدس لديهم لا تكتمل حضارتهم إلا به[٤٦]. | عدم إيلاء الجوانب المتعلقة بالنظافة ما تستحقه من الاهتمام، حيث تتراكم النفايات في الحواضر أو يتم التخلص منها بطرق غير سليمة. |
| | أول ما شد انتباهي بعد أن توغلت الحافلة في شوارعها الرئيسية هو الانسيابية في السير رغم العدد الهائل من المركبات التي تعبرها[٤٧]. | الاختناقات المرورية - الاستعمال المزعج للمنبهات الصوتية – كثرة حوادث السير (حالة الدار البيضاء). |
| | المعطى الايكولوجي ثابت وأساسي في هندسة المدن الصينية التي بدت صديقة للبيئة حتى الأكثر كثافة منها[٤٨]. | الكثير من المدن المغربية لا تحتوي على ما يكفي من المساحات الخضراء اللازمة لامتصاص ما تُخلفه الأنشطة الاقتصادية من غازات ضارة. |
| محاربة الفقر | الدولة الصينية تحارب الفقر بشكل جدي وعملي وبطرق مبتكرة، ففي إقليم قويتشو مثلا انخفضت نسبة الفقر من ٢٦% إلى ٨%. وفي مجموع التراب الصيني تقلص عدد الفقراء من ٧٠٠ مليون إلى ٣٠ مليون[٤٩]. | غياب خارطة طريق واضحة للقضاء على الفقر، بالإضافة إلى التوظيف السياسي للأحزاب وعدم وجود مقاولات مقتنعة بأن مصلحتها تقتضي الحد من الفقر، دون إغفال مسؤولية المواطن الذي يجب عليه الانخراط بشكل جاد في التنمية[٥٠]. |
| العالم القروي | وجدنا قرية هايزي فارغة، ومن أهلها شاغرة، فهم لم يألفوا الدعة ولا الراحة ولا جبلوا على الكسل والخمول، يغادرون بيوتهم إلى المزارع والحقول منذ الثامنة صباحا، فيما يتجه الأطفال في الوقت نفسه إلى المدارس... هي قرية التناغم والانسجام، تم تصميمها وفق هندسة معمارية واحدة، وتعتبر الأفضل معيشا بين مجموع الأرياف الصينية[٥١]. | لا شك أن بياض استحضر وضعية مغايرة تعيشها البادية المغربية التي ظلت حبيسة اقتصاد القلة والكفاف ومحرومة من امكانيات تحقيق تراكم منتج يفضي إلى التحول والتجاوز، والقارئ لكتاب المخزن والضريبة والاستعمار سيقف بكل تأكيد عند هذه الخلاصة التي نعتقد أنها مازالت صالحة حتى اليوم لتفسير ضعف التنمية في عالمنا القروي[٥٢]. |
| الذاكرة والتاريخ | حديث بإسهاب عن اهتمام الصينيين بحفظ ذاكرتهم الجماعية، عبر صون التراث المادي واللامادي، وتشييد المتاحف لتثمينه وجعله رافعة لتحقيق التنمية[٥٣]. | انتقاد غير مباشر للإهمال الذي يطال التراث بالمغرب، حيث تضيع العديد من المواقع الأثرية، بالإضافة إلى نقص كبير في المتاحف، وحتى تلك الموجودة فإن الدخول إليها يكون بمقابل قد يثني الكثيرين عن اكتشاف هويتهم وذاكرتهم. |

## ثالثًا: تقاطع العلمي بالإنساني في رحلة اكتشاف الصين

يكتسي السفر إلى الأماكن البعيدة طابعا سحريا، ويكون بمثابته حدث كفيل بتغيير مجرى حياتنا اليومية، وقد أثار علماء الأنثروبولوجيا الانتباه إلى هذا الأمر منذ مدة طويلة، فالسفر سواء كان من أجل العمل أو من أجل الاستجمام، فإنه يؤثر حتما وبشكل عجيب على السلوك البشري وعلى القدرات الادراكية للإنسان، وخاصة قدرته الغريبة على نقلنا مما هو مادي إلى ما هو رمزي، ومما هو مدنس إلى ما هو مقدس. ويبقى النص الرحلي حسب اعتقادنا تجربة إنسانية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، قبل أن يكون نصا يعكس لحالة انبهار أو إعجاب بالأشياء المرئية. وفي هذا السياق، تُقدم لنا رحلة اكتشاف الصين محور هذه الدراسة نظرة عن تقاطع الهم العلمي والاستطلاعي مع تجربة إنسانية فريدة عاشها الطيب بياض وهو يرتحل إلى أقصى الشرق، المكان المليء بالرموز والدلالات الفلسفية والدينية. إن هذا التقاطع يجعل المتلقي منشغلاً ومهتمًا ليس فقط بالكيفية التي تمثل بها بياض الأشياء الجديدة، بل بالطريقة التي انعكست بها على مشاعره وكيانه، وجعلته يبوح في أكثر من مرة بما يختلج صدره من أحاسيس إنسانية تجاه العائلة وزملائه وطلبته.

تحدث الطيب بياض في البداية عن مرافقه في هذه الرحلة الطويلة، وهو أحد الباحثين في سلك الدكتوراه اسمه توفيق أيت بوشكور واصفًا إياه بالطالب المجتهد والباحث النبيه والإنسان الخلوق[٥٤]، وهذا الوصف يقدم لنا تصورًا عن العلاقة المتميزة التي تجمع أستاذًا جامعيًا بأحد طلبته، إنها صورة يمتزج فيها العلمي بالإنساني والبيداغوجي بالعاطفي، والحقيقة أن هذا التعامل لا يحظى به الطالب المذكور فقط، بل يشمل عموم الطلبة الذين يشرف على تكوينهم الطيب بياض سواء في سلك الإجازة أو الماستر أو الدكتوراه، فقد دأب صاحب رحلة اكتشاف الصين على إشراك طلبته في مشاريعه العلمية الرامية إلى فتح أوراش جديدة في الكتابة التاريخية، كما يهتم في كل مناسبة تجمعه بالباحثين الشباب على تحفيزهم ومنحهم المهارات والكفايات اللازمة لخوض غمار البحث العلمي.

تحدث الطيب بياض أيضًا عن العلاقة التي تجمعه بالمؤرخ محمد حبيدة، الذي يشتغل أستاذًا للتعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ابن طفيل بالقنيطرة. إنه الصديق والزميل والمؤرخ المجدد، والإنسان النبيل الذي يكن له رحالتنا تقديرًا خاصًا، ويتقاسمان القلق المعرفي نفسه، وتجمعهما قرابة فكرية وإنسانية عميقة[٥٥]. فبخصوص القرابة الفكرية، فالباحثان جمعتهما العديد من المشاريع العلمية كان آخرها المُشاركة في ترجمة كتاب **تاريخ العالم في القرن التاسع عشر**[٥٦]، أما القرابة الإنسانية، فإننا لا نعلم عنها سوى أن الطيب بياض كلما ذُكر اسم محمد حُبيدة إلا وأشاد بنبله وصدقه وتواضعه ودماثة خلقه.

وفي خضم نقاشاته مع الوفد السوداني بأحد مقاهي مدينة بيكين، تذكر رحالتنا بنوع من الحنين الممزوج بالرغبة في تجديد اللقاء صداقته المتينة بزملائه السودانيين، الذين كانوا يدرسون معه بكلية ظهر المهراز بفاس[٥٧]، وكيف تمكن من فتح حوار منتج معهم، جمع بين النقاش الفكري العميق والاستئناس بالإنتاج الأدبي السوداني الذي يتميز بتنوع روافده وأذواقه.

وتبقى أهم لحظة إنسانية استرعت انتباهنا في الرحلة هي تلك التي تحدث فيها الطيب بياض عن مرض ابنته ندى، وكيف شكل مرضها بالنسبة إليه خلخلة سيكولوجية كادت تثنيه عن السفر، إن هذا الإحساس الأبوي المليء بالعواطف الجياشة تجاه صغيرة لم تتجاوز ربيعها الثامن، يجعل القارئ يشعر بأن موعد مغادرة الأهل قد تحول إلى حدث موسوم بالألم والوجع، وكم كان كلود ليفي ستراوس صادقا عندما لاحظ في كتابه المدارات الحزينة أن السفر يعني فيما يعنيه التمزق على ثلاثة مستويات، ذكر منها العلاقات الاجتماعية. ولقوة التعبير وصدق الإحساس نستلُّ فقرة من المتن الرحلي تعبر عن هذه اللحظة الإنسانية التي تسمو بالرحلة إلى مستوى القصة الرمزية للحياة، يقول رحالتنا في هذا الصدد: "جمعتني مع أسرتي جلسة عائلية خفيفة في ليلة السفر تلك تناوب فيها الجد والهزل، تعمد فيها أفراد الأسرة إخفاء مرض كان قد ألَمَّ بصغيرتي ندى ذات الثماني سنوات، أو على الأقل التخفيف من شأنه بعد أن أنبأني إحساس الأبوة بأنها ليست على ما يرام... وكان إحساسي في محله ندى مريضة جدًا، تشُدُّ رأسها بمنديل

ووجهها شاحب ومع ذلك تداري وتحرص على طمأنتي"[٥٨].

## خَاتِمَةٌ

تتيح لنا القراءة المتأنية لرحلة اكتشاف الصين الخروج بخلاصتين:

**الأولى:** توفَّقَ الطيب بياض بشكل كبير في الانتقال من دراسة النص الرحلي إلى إنتاجه، ولم يكن بإمكانه كسب هذا الرهان لولا تسلحه بعدة منهجية وانفتاحه على العلوم المجاورة للتاريخ، مثل الاقتصاد والأنثروبولوجيا والأدب والفلسفة... بالإضافة إلى تملكه الرصين لأدوات صنعته، دون إغفال نمط الكتابة وأسلوب التعبير لإيصال المعنى. والحالة هذه فنحن أمام نص رحلي فريد من نوعه يشكل امتدادا لنصوص رحلية سابقة في عناصر محددة لكنه يتجاوزها في جوانب كثيرة.

**الثانية:** إن الرحلة التي تناولناها في هذه القراءة، تنقل لنا بشكل صادق وأمين تمَثُّل الطيب بياض للصين والصينيين، وتقدم لنا صورة واضحة المعالم بعيون باحث أكاديمي عن التحولات الكبرى التي عرفها هذا البلد الآسيوي خلال العقود الأخيرة في مختلف المجالات، الشيء الذي يرقى بالرحلة إلى مستوى التقرير الاستطلاعي، حيث يسعى الكاتب إلى تقديم أجوبة عملية عن كيفية تحقيق تنمية شاملة ومتوازنة وسريعة تنعكس على جميع المواطنين. وأملنا الكبير ألا يبقى النص حبيس رفوف المكتبات، وألا يقتصر تداوله على الأوساط الأكاديمية فقط، بل أن يتم استلهام ما فيه من أفكار من قبل المسؤولين في البلد الذين يخوضون غمار تنزيل النموذج التنموي الجديد ورهان الدولة الاجتماعية.

## الإحالات المرجعية:

(١) سعيد بنسعيد العلوي، **أوروبا في مرآة الرحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة**، منشورات كلية الآداب fالرباط، ١٩٩٥، ص. ١٢.

(٢) نفسه، ص. ١٥.

(٣) الطيب بياض، **اكتشاف الصين رحلة أكاديمي مغربي إلى أرض التنين**، منشورات باب الحكمة، تطوان، ٢٠٢٢، ص. ٢٨.

(٤) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٣.

(٥) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٢.

(٦) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٢.

(٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٢.

**(٨)** بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٤.

(٩) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٤/٤٥.

(١٠) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٥.

(١١) الطيب بياض، **الصحافة والتاريخ اضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن**، منشورات دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٩، ص. ٩٥.

(١٢) بياض، **الصحافة والتاريخ**، ص. ١٤٢.

(١٣) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٥٥.

(١٤) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٥٥.

(١٥) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٥٦.

(١٦) إن توظيف الوثيقة في النص الرحلي بشكل كثيف يعطي انطباعا للقارئ بأن الرَّحالة قد زار فعلا البلد موضوع الرحلة، وقد سبق للباحث الفرنسي فرانسوا كزافيي فوفيل إثارة هذ المسألة عندما شكك في وصول ابن بطوطة إلى الصين، مما يفيد بأن عدم توظيف الباحث المذكور لما يكفي من الأدوات المنهجية لقراءة رحلة ابن بطوطة، قد قاده إلى الخروج بهذه الخلاصة المجانبة للصواب. وفي رحلة اكتشاف الصين يمكننا أن نفهم سبب استشهاد الطيب بياض في عدة مناسبات بابن بطوطة وكأنه يفند بشكل ضمني ما ذهب إليه الباحث الفرنسي، ويعيد الاعتبار في الوقت نفسه للرَّحالة الذي شكل كتابه أول نص نقل لنا تمثل المغاربة للصين.

(١٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٧٣.

(١٨) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٧٦.

(١٩) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٧٦.

(٢٠) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٧٦.

(٢١) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٠٦.

(٢٢) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١١٢.

(٢٣) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١١٢.

(٢٤) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٤.

(٢٥) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٣٠.

(٢٦) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٦٥.

(٢٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٩٠.

(٢٨) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٤.

(٢٩) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٨/٤٧.

(٣٠) الطيب بياض، **رحالة مغاربة في أوروبا بين القرنين السابع عشر والعشرين تمثلات ومواقف**، المطبعة السريعة، القنيطرة، ٢٠١٦، ص. ٩٦/٩٥.

(٣١) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣٨.

(٣٢) بياض، **رحالة مغاربة**، ص. ٧٢/ ٧٣.

(٣٣) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٨٦.

(٣٤) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣١.

(٣٥) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣١.

(٣٦) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣٥.

(٣٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٥٦.

(٣٨) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٩

(٣٩) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٩.

(٤٠) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣٩/٣٨.

(٤١) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٣٩.

(٤٢) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٥٢.

(٤٣) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٠٣.

(٤٤) يقول الطيب بياض وهو يعلق على أحد العروض الفنية التي شاهدها بمدينة شيزين: "رغم جهلنا للغة المسابقة، فقد استفدنا من اللوحات الفنية التي كانت تتخلل فقرات تلك المسابقة، كما أن الانتباه لحركات الجسد وتعابير الوجه وطريقة الإلقاء، قد مكنني من تمييز مستويات الأداء، لذلك لم أتفاجأ بإعلان نتيجة المسابقة التي فاز فيها بالرتبة الأولى أحد رجال الأمن الذي كان مرتديا زيا رسميا". الصفحة ٥٨ من الرحلة.

(٤٥) بياض، **رحالة مغاربة في أوروبا**، ص. ٩.

(٤٦) بياض، **اكتشاف الصين**، ٨٧.

(٤٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٠٦.

(٤٨) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٠٦.

(٤٩) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٤٨.

(٥٠) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٩٢.

(٥١) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٩٠- ٩١.

(٥٢) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب ١٨٨٠-١٩١٥**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١١، ٦٣.

(٥٣) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١١١.

(٥٤) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٣.

(٥٥) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٩.

(٥٦) بيير سينغارافيلو وسيلفان فينير (إشراف)، **تاريخ العالم في القرن التاسع عشر**، نسق الترجمة وراجعها محمد حبيدة، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ٢٠٢١.

(٥٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٢٦- ١٢٧.

(٥٨) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣٠- ٣٦.